مجلة الراية

العدد : ١٨٩ الموافق في ذو الحجة ١٤١٧ هجري ٥ / ١٩٩٧ ميلادي

عنوان المقال : الإسلاميون واللعبة السياسية	بقلم : صلاح الدين نكدلي

صدمت وسائل الإعلام في يوم ١٩٩٧/٤/٧ التيار الإسلامي بصورة رئيس وزراء تركيا نجم الدين أربكان وهو يستقبل وزير خارجية الصهاينة... مغتصبي فلسطين. وأجمعت وسائل الإعلام على أن أربكان وجد نفسه مضطراً لاستقبال الوزير الصهيوني ؛ عملاً بالأعراف السياسية ، واستجابة لضغوط قوى السلطة في أنقرة. وأبرزت أربكان قد طلب من الزائر أن تكف حكومته عن تجاهل حقوق الشعب الفلسطيني ، وأن تتوقف عن أعمال الاستيطان وخاصة في القدس ، وأن الوزير الزائر كان صريحاً فرد مؤكداً أن حكومته تمارس حقها في أرضها ، وأن القدس عاصمة « إسرائيل » الأبدية !!.

وتألم كثيرون من اللقاء ، ومن صفاقة الوزير اليهودي ، وتعددت ردود الأفعال ، وتراوحت بين الاتهام وبين تلمس المسوغات ، ولا نريد أن ندخل ميادين التشكيك أو العتاب أو اللوم أو التبرير ، ولكن نود ألا يمر هذا الحدث من غير ذكر لما يجري.

توطئة :

❋ قام الفكر الإسلامي المعاصر على رفض الفكرة العلمانية القائلة : « دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله » معتبراً أنها عملية استلاب حضاري ، وعلى رفض الفكرة القومية واعتبارها معدن هدم ، ترسخ التجزئة وتذكي الصراعات.

❋ وقاوم المتغربون الفكرة الإسلامية وتجلياتها السياسية والاجتماعية الداعية إلى { **إن الحكمُ إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إيام ذلك الدين القيم** } وإلى { **إنما المؤمنون إخوة** }.

ولما آل السلطان السياسي - بعد رحيل الاستعمار الأوروبي العسكري - إلى تيار المتغربين ، تبنى هؤلاء سياسة إقصاء المخالفين ، ومارسوا في حقهم أعمالاً يندى لها الجبين ، وخصوا الإسلاميين بقسط كبير من المعاناة ، مما ولد عند معظم التيار الإسلامي موقفاً رافضاً للآخرين ومقصياً لهم.

علمانيون معتدلون !

وبما أن دوام الحال من المحال ، فإن المتغيرات والأزمات وحركة الفكر في شعوب العالم الإسلامي ، قد دفعت عدداً من أصحاب القرار العلمانيين إلى البحث عن صيغ سياسية تسمح لهم بنوع من التعامل مع التيار الديني السياسي ، المدعوم شعبياً بتوجه ديني عام ، ومارس العلمانيون هذه السياسة تحت شعار « المصالحة الوطنية » كما وقع في السودان ، حيث قبل تيار إسلامي التفاهم مع نظام نميري ، أو تحت ستار « التعددية الحزبية » وتباينت الاجتهادات بين السماح للتيار الديني بحرية الحركة كما في باكستان ، وبين تقييده بعدم رفع الشعار الإسلامي والقبول - ظاهرياً - بالنظام العلماني ، كما هو الحال في تركيا ، وبين القبول بالشعار الإسلامي على أن لا يسعى إلى تغيير أسس النظام الحاكم كما هو الحال في التجربة الأردنية.

إسلاميون معتدلون !

وفي الجانب الإسلامي رفعت أحزاب شعار « الواقعية » وانطلقت من مقولة : « **تمتع بالممكن فإنه كفيل بتغيير الشروط الاجتماعية والسياسية ، وكلما سنحت فرصة فاغتنمها** » ورأت أن هذا النهج في ظروف المسلمين ، وفي هذه المرحلة التاريخية ، هو الأسلم ، وله فوائد يأتي في مقدمتها :

❋ تمرس الإسلاميين على العمل الميداني اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً.

❋ وتوفير عقلية قادرة على عمل الفريق في ظروف استثنائية.

❋ وبناء جسور التعارف والاحترام مع قوى موجودة في المجتمع ، وفي العالم ، تطمئنهم إلى أن الإسلاميين ليسوا جزارين وأنهم رحمة وخير.

من يكسب الرهان ؟!

ويراهن العلمانيون القابلون بالتعاون مع التيار الإسلامي على أن سياسة « الاحتواء » ستفرغ الإسلاميين من الأفكار التغييرية ، وتجعلهم لوناً في الحياة السياسية إلى حين ، وتغري كثيرين منهم بالمناصب والمكاسب. ويرون أن مشاركة الإسلاميين في الحياة السياسية تسلبهم ما يتذرعون به من فساد السلطة الحاكمة والأحوال الاجتماعية والسياسية... والمشاركة السياسية تفقدهم ما يتمتعون به من

جاذبية الخطاب المعارض من خارج الطيف السياسي.

أما الفصائل الإسلامية التي ولجت اللعبة السياسية بشروطها القطرية... فتراهن على أن دخول الإسلاميين أطرافاً في العمل السياسي سيجعلهم شركاء في القرار ، وهذا أول طريق الاعتراف بالتيار الإسلامي سياسياً ، وبداية الاقتناع بالتمكين له في القرار ، وهذا يهبه إمكانات أفضل على التحرك والتأثير ، وتخفيف بعض السلبيات. ولا تنكر هذه الفصائل أن للعلمانيين أهدافاً من الانفتاح على الإسلاميين ، ويقول منظروا تلك الفصائل : إن العمل السياسي معركة... فيها مكاسب وخسائر ، ولا بد من دخولها عملاً بسنة التدافع التي يحكمها قول الله عز وجل : { **إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيماً**}[النساء:١٠٤] ، فلا يصح أن نركز أبصارنا على الخسائر والجراح المتوقعة في المعارك السياسية ، بل ينبغي أن تشمل الرؤية مجالات الفوز والتمكين.

علمانيون رافضون :

وفي معسكر العلمانيين رافضون لأي لون من ألوان التفاهم والتلاقي مع التيار الإسلامي ، ويرى هؤلاء أن الإسلاميين يستخدمون الشعار الديني في مخاطبة الجماهير ، وبما أن عامة الناس في العالم الإسلامي يحيون الإسلام ويتأثرون بالخطاب الديني ، فإن السماح للإسلاميين بالعمل السياسي يضع في أيديهم وسائل إعلام مؤثرة ؛ كالمساجد ، وقد يسخرون المنابر للترويج لأفكارهم ، وهذا ما لا يملكه أي تيار سياسي ، وقد يعمد الإسلاميون إلى إصدار الفتاوى وتخويف الناس بعذاب الآخرة إذا لم يؤيدوا برنامجهم ، وهذا لون من الاستغلال لا يصح السماح به ، و... ، و...

ويقولو أيضاً : إنه لا لقاء مع أناس يعتمدون مرجعية غير علمانية ، لأنهم إذا وصلوا إلى السلطة ، ولو عن طريق الانتخاب ، فإنهم سيعمدون إلى إلغاء « الديمقراطية » وإلى نسف كل آلياتها. وينكرون على من يقول منهم : إن هناك فرقاً بين إسلامي متطرف وإسلامي معتدل ، وعلينا أن نتعامل مع المعتدلين لنقطع الطريق على المتطرفين. ويردون على هذا القول : إن سبب الخلاف مع التيار الإسلامي يرجع إلى مناداته بـِ « الدولة الدينية » والإسلاميون جميعهم متفقون على ذلك ، والخلاف بينهم محصور في الوسائل ، فكل من يدعو إلى الدولة الدينية متطرف ، وعلينا أن نقاومه قبل أن يستفحل خطره.

إسلاميون رافضون

وفي صف الإسلاميين فريق يرى أن التعامل مع الأوضاع السياسية القائمة خطأ أو انحراف أو ضلال ، ويرى أن ولوج ساحة العمل السياسي سيؤدي إلى صنوف من العبث بقيم الإسلام ، وإلى ألوان من المداهنة والقبول بالباطل ، والالتزام بقرارات المؤسسات التشريعية والتنفيذية المخالفة لشريعة الله عز وجل. ويؤكد هؤلاء على أن النظام السياسي في بلاد المسلمين مصمم على منع الإسلاميين من تطبيق برنامجهم ، وما أحداث الجزائر عنا ببعيدة... فعندما شعر العلمانيون أن صناديق الاقتراع ستعطي الإسلاميين تفويضاً يمكنهم - وفق أحكام الدستور المعمول به - من إعادة صياغة الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية... إلخ. حركوا آلة القمع ، فانقضت المؤسسة العسكرية على حرية الشعب ، وأوقعت المسار الانتخابي ، وهلل لها علمانيون جهراً ، وفرح آخرون سراً. وحين اكتشف بعضهم أن العساكر قرروا إبعادهم عن مراكز القرار أعلنوا معارضتهم ، فلما استتب الأمر ظاهرياً للقوة العسكرية ، عاد هؤلاء إلى الأضواء السياسية الداخلية. وقرروا دخول الانتخابات التي يشرف على إخراجها العسكر !!.

ويضيف هؤلاء : ولنا عبرة في تجربة الإسلاميين في تركيا ، فعلى الرغم من توفير كل الشروط العلمانية في شعار حزب الرفاه ونظامه وبرنامجه ، وعلى الرغم من تحالفه مع حزب علماني يمنعه من « أسلمة الدولة » وعلى الرغم من وجود غالبية ساحقة من العلمانيين في المجلس النيابي ، إذ يشكلون أربعة أخماس المجلس ، ... فإن العلمانيين انزعجوا من تصرفات لحزب الرفاه ، وحركوا آلة الإرهاب « العسكر » ، فعقدوا لقاء في مجلس الأمن القومي ، وأعلنوا على الملأ أنهم يتوجسون خيفة من حزب الرفاه ، وأن على رئيس الوزراء الإسلامي أن يحارب مظاهر التدين التي تتعارض مع علمانية أتاتورك... و... و...

❋ ❋ ❋

خلاصة وبيان :

❋ لا ريب في أن عامة الأنظمة السياسية الحاكمة في العالم الإسلامي لا تتيح فرصاً لتداول السلطة ، ولا تسمح بقيام أحزاب سياسية تحظى بتأييد شعبي يؤثر على صيغة الدولة ، وأصبح واضحاً أن المؤسسة العسكرية هي أداة القمع وفرض الأمر الواقع.

❋ والعجيب الغريب أن القوى السياسية تعلم هذا حق العلم ، ومع ذلك تخوض غمار العمل السياسي آملة في التقليل من هيمنة الأسرة الحاكمة أو الفرد الحاكم أو المؤسسة الحزبية أو العسكرية

المسيطرة. فالسياسيون يدركون أنهم لا يعملون للتغيير ، ويقنعون بأن يكونوا كواكب تسير في نظام السلطة ! التي ترضيهم ببعض مظاهر التغيير الجزئي.

❋ ولم يعد خافياً أن هناك أنظمة علمانية لا ترى مانعاً في أن يكون التيار الإسلامي السياسي لوناً من ألوان اللوحة السياسية ، على أن لا يتجاوز ٢٠-٢٥% من حجم الألوان الأخرى ، فلا يسمح له بتغيير الصورة ، فإذا أصر على ذلك كان عليه أن يدفع الثمن ، وهذا ما نراه في محاصرة القوى الإقليمية والعالمية لمحاولة إقامة نظام حكم إسلامي في السودان.

❋ لقد سقطت شعارات القوميين والرأسماليين والاشتراكيين ، وهي في طريقها إلى الاندثار في معظم الأقطار ، وبما أن التيار الإسلامي يشكل المعارضة البديلة فإن محاولات ضربه ، وتشويهه ، وجره إلى مقاتل مادية ومعنوية أمور مطلوبة. وما جرى ويجري في تركيا لا يصح أن ننظر إليه بعيداً عن مخطط التشويه والاحتواء ، ولعل زيارة وزير خارجية الكيان الصهيوني المغتصب تهدف إلى إدانة التيار الإسلامي الذي يرفع شعار رفض الاستسلام والاعتراف ليهود باغتصاب فلسطين... فالإسلاميون في هذه المرحلة يمثلون جدار المقاومة... فلا بد من اختراقه.

❋ وعلى الرغم من كل ما سبقت الإشارة إليه فإنه يبقى من حق الفرد المسلم والتنظيمات الإسلامية أن تختار بين الدخول في المعترك السياسي وبين تركيز الجهد على التغيير من خارج اللعبة السياسية ، وينبغي ألا يؤثر ما يختاره كل فريق على الأخوة والتناصر بالحق ، والتعاون على البر والتقوى ، وإذا كان لا بد من بيان المواقف فلتكن بعيدة عن الاتهام والغمز واللمز ولتبق في حدود الخطأ النسبي.

❋ ويؤسفنا أن نقول : لقد نشأ الفكر الإسلامي المعاصر في أجواء القهر الداخلي والهيمنة الخارجية ، فأثر هذا على مقدماته الفكرية ونتائجه العملية السلوكية ، ومن ذلك تقسيم الناس إلى فريقين : « مع » و « ضد » ، واتسم موقفه من « الضد » بالقطعية ، والمعاداة ، ولم يقف هذا عند حدود المخالف في أصل التصورات عن الخالق والكون والإنسان ، بل شمل الذين يخالفون في فهم أو رأي من داخل الصف الإسلامي !

والسبب في هذا عدم تفريق كثيرين بين « الضلال » و « الإجراءات » التي تحكمها الظروف فردية وجماعية ، وفقد معظم أبناء التيار الإسلامي ما يسمى بـِ « السياسة الشرعية » عند التعامل مع واقع المسلمين في ظروف العالم والعصر. ولهذا تأتي أحكامهم قاسية متوشحة بالغيرة على دين الله عز

وجل ، ونتمنى أن تمر هذه الغيرة من خلال العلم الشرعي والمعرفة الحياتية ، لئلا يسيء عاملون صادقون وهم يتوهمون أنهم ينصرون دين الله عز وجل. ونرجو أن تتهيأ ظروف من الحريات توفر للتيار الإسلامي جواً يساعده على قراءة الواقع والخروج من مقولات مراحل الاضطهاد والقتل.

❋ وأخيراً نقول : إن الذي يدخل معركة عليه أن يقدر آلامها وقدرته على تحمل تبعاتها ، وهذا التقدير بشري يسري عليه خطأ وصواب ، والمأمول من الذين اختاروا دخول المعترك السياسي من الإسلاميين أن يجتنبوا المغامرات القاتلة - أي : الجاهلة - لأن نجاحهم نجاح لتيار التجديد الإسلامي ، وأخطاءهم غير المسوَّغة تعرقل المسيرة وتؤثر على جميع العاملين.

ونأمل من إخواننا في تركيا أن يكونوا على مستوى التحديات ، وندعو الله تعالى بأن يجنبهم المزالق ، ونناشد التيار الإسلامي بأن يتيح فرصاً لخلاف الرأي وتعدد صور الممارسة ، وأن يبتعد عن تضخيم الأخطاء والتقليل من الإيجابيات ، ونؤكد أيضاً على وجوب البعد عن التقليل من الأخطاء الكبيرة ، وتضخيم الإيجابيات الصغيرة... فكل ذلك مضلل للرأي والموقف.